بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة 8-7-2011م **الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال**

((بدائع السَّلْك في طبائع المُلك))

الحمد لله.. الحمد لله ثم الحمد لله..

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبيٍّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله.

أرسله ربنا بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كلّه، ولو كَرِه الكافرون، ولو كَره المشركون، ولو كَره مَن كَرِه، اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد.. فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإياي على طاعته وأستفتح بالذي هو خير :

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

وقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9]

وقال جل من قائل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11]

قال صلى الله عليه وسلم: ((من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سَلَك الله به طريقاً من طرق الجنة)) [أبو داود والترمذي]

قال ابن حزم: (لو لم يكن من فضائل العلم إلا أن الجهَّال يهابونك ويجلُّونك، وأن العلماء يحبّونك ويكرمونك، لكان ذلك سبباً لطلبه ووجوب الاتصاف به، فكيف ومعلوم فضائله في الدنيا والآخرة).

عنوان خطبة اليوم: (**بدائع السَّلْك في طبائع المُلك**).

● **أيها الإخوة:** سبق أن الفقه الإسلامي مؤلف من خمسة أقسام رئيسة: (العبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والقضاء، والسياسة الشرعية).

وفي هذا القسم الأخير مباحث مهمة يتناولها علماء الشريعة، متعلقة بالفقه السياسي في الإسلام.

ولهذا القسم مصادر ومراجع كثيرة أحببتُ أن أُطلِعكم على شيء منها بأن أقدّم بين أيديكم تقريراً في الخطبة عن واحد من هذه المصادر لنفيد منه ويفيد مَن يستمع إلى هذه الخطب علماً وعملاً.

اسم الكتاب : ((بدائع السَّلْك في طبائع المُلك)) .

اسم المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن علي بن محمد الأزرق الغرناطي الأندلسي، من وفيات عام (896هـ).

جاء الكتاب في طبعته المحقَّقة في مجلدتين، وقاربت صحائفه الألف.

أما مؤلفه فهو فقيه قاض مفكّر إمام عالم اجتماعي، من أهل غرناطة ، تولى القضاء بها، ثم رحل إلى المشرق، فصار قاضي القضاة في بيت المقدس، له كتب، منها:

1)"الإبريز المسبوك في كيفية آداب الملوك".

2)"تخيير الرياسة وتحذير السياسة".

3)"شفاء العليل في شرح مختصر خليل" في فقه المالكية.

4)"روضة الأعلام بمنزلة العربية في علوم الإسلام".

أما كتابه المدروس"بدائع السَّلْك في طبائع المُلك"، فقد قالوا عنه: (كتاب بديع في موضوعه، لخَّص فيه مقدمة ابن خلدون، وزاد عليه زيادات كثيرة نافعة، وهو في سفر ضخم).

قسم ابن الأزرق –مؤلِّفه– **بدائع السلك أربعة كتب:**

–الكتاب الأول: في حقيقة الملك والخلافة وسائر أنواع الرياسات.

–الكتاب الثاني: في أركان الملك وقواعد مبناه.

–الكتاب الثالث: فيما يطالَب به السلطان تشييداً لأركان الملك وتأسيساً لقواعده.

–الكتاب الرابع الأخير: في عوائد الملك وعوارضه.

أماكتابه الثالث الموسوم بـ: (فيما يطالب به السلطان تشييداً لأركان الملك وتأسيساً لقواعده) فجعله مقدمة وفصولاً ثلاثة، فصلاً لسياسة السلطان، وفصلاً لسياسة الوزراء، وفصلاً لسياسة سائر البطانة والخواصّ.

وعندما تحدّث في فصله الأول عن سياسة السلطان تكلّم عن سياستين؛ الأولى: سياسة الرعية، والثانية: سياسة الأمور العارضة، كالجهاد والسفر والشدائد النازلة وغيرها.

وها أنا أقرأ عليكم شيئاً مما أورده في سياسة الأمور العارضة، عندما تكلّم عن الشدائد النازلة.

قال: (ومن النافع فيها تذكيرات...

التذكير الأول: أن من ضرورة وضع الدنيا الابتلاء بها شراً وخيراً، ووجود الشدائد المكدِّرة لصفو الراحة فيها، تعريفاً بما وُضِعت عليه وإعلاماً.

ومن ثَم قال الشيخ تاج الدين: لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار.

وقال غيره:

طُبْعت على كَدَر وأنت تريدها صفواً من الأقذار والأكدار

ومكلِّفُ الأيام ضدَّ طباعها متطلّبٌ في الماء جذوة نار

وقال آخر:

إن الليالي لم تُحْسِنْ إلى أحد إلا أساءت إليه بعد إحسان

التذكير الثاني: إن من لازِمِ نصب الحدود الشرعية لتجري بها مصالح الدارين... أن تكون المعصية بمجاوزة تلك الحدود سبباً في الشدة المصاب بها مَن نزلت به، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى : 30].

التذكير الثالث: أن شيوع المعصية وخصوصاً من السلطان ومن يليه هو سبب وجود الشدائد العامة والابتلاء بمصابها.

التذكير الرابع: إن الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة مما أوجب وقوع الشدة الخاصة والعامة هو كفيل بتعجيل الفرج منها، وتبديل العسر بها يسراً، كما وقع لقوم يونس عليه السلام لما تابوا من الكفر. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس : 98]

وفي الحديث: ((**مَن لزِمَ الاستغفارُ جعلَ اللهُ لَهُ من كل ضِيقٍ مَخرَجاً، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، ورَزَقَهُ من حيث لا يَحْتَسِبُ**)). [أخرجه أبو داود].

التذكير الخامس: وهي الخصلة التي ترجم عليها الطرطوشي أنها ملجأ الملوك عند الشدائد، ومَعقل السلطان عند اضطراب الأمور والأحوال.

وهي أن يترك للناس دينهم ودنياهم، بمعنى أن لا يحول بينهم وبين صلاح ذلك، واستظهر على ثمرة العمل بهذه الخصلة بحكايتين:

- **الحكاية الأولى**:

قول المأمون في آخر مواقعه مع أخيه الأمين: بقيَت لأخي خصلة، لو فعلها مَلَكَ موضع قدميَّ هاتين، فقيل له: وما هي ؟ قال: والله إني لأضِنُّ بها على نفسي فضلاً على غيري، فلما خَلَصَ له الأمر سُئل عنها، فقال: لو أنه نادى بحط الخراج والوظائف السلطانية عشر سنين لمَلَك الأمور عليَّ، لكن الله غالبٌ على أمرِه.

- **الحكاية الثانية**:

قول الفضل بن سهل لما استشاره المأمون وقد خشي انتفاض أهل خراسان في الفتنة مع الأمين:

(قد قرأت القرآن والحديث، والرأي عندي أن تجمع الفقهاء وتدعوهم إلى العمل بالحق وإحياء السنة، وتواصل النظَر في المظالم، وتقرّب أهل العدل وتبعد أهل الجور، ففعل ذلك، وحط على أهل خراسان رفع الخراج، فمالت وجوه الخلائق إليه، وانقاد إليه رافع بن المهلب، وكان أعظم الملوك بخراسان).

أيها الإخوة:

هذا تقرير مختصر سمح به الوقت للتعريف بواحد من كتب السياسة الشرعية:

كتاب ((**بدائع السَّلْك في طبائع المُلك**)) لأبي عبد الله محمد بن الأزرق الغرناطي الأندلسي.

عسى الله أن ينفعنا بما سمعنا جميعاً.

ختاماً:

حُكي أن كسرى أنو شروان سأل حكيماً من حكمائهم، فقال: ما عزُّ المُلك؟ قال: الطاعة، قال: فما سبب الطاعة؟ قال: التودد إلى الخاصة والعدل على العامة. قال: فما صلاح المُلك؟ قال: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منهم في غير مشقة، وأداؤه إليهم عند أوانه.

والحمد لله رب العالمين